عن الحركة الصهيونية لم يلفت له الانظار كثيرا حتى الان · والصهيونية كما بات معروفا غابة طالما صالت واعتركت فيها الاقلام ولا تزال ، ولكنها في كل ذلك ، ظلت دون الحقيقة التي تشبع طموحات قطاعات واسعة من المثقفين العرب · وظلت الصهيونية ابوابا مفتوحة على كل الاتجاهات لكل من يحاول عبورها واكتشاف اعماقها ·

وها هو صبري جريس احد انشط الباحثين في الميدان الصهيوني ، والذي ارتبط اسمه بدراستها منذ زمن ليس بالقريب ، يخوض غمار التجربة التسي قيمتها ليس في عطائها ، وانما في جرأتها ومخاطرتها في شق بطن التاريخ والبحث فيه دون التكيف مع الواقع المنظور لمناهج البحث العلمي في التاريخ · والذي يجعله قادرا على الغوص واستنباط الحقائق وسد ثغرة في الفهم العربي لهذه الظاهرة الجديرة باعادة تفكيك عواملها المكونة لها ومن ثم اعادة تركيبها من جديد ، كيلا تبقى مجرد احداث وروايات متناثرة تشوبها روح المغامرة الفردية والوهمية والمنقولة من فلان الى فلان بلا منطق يحكمها ·

ولكن كيف يحدد صبري جريس جديده في هذا الكتاب ؟ يقول الاستاذ جريس : انه يحاول ان يكتب قصة الصهيونية داخليا منذ نشوئها وحتى الاعلان عن اقامة اسرائيل ، ليتمكن القارىء في النهاية من تقييم المعطيات التي مكنت هذه الصهيونية من اقامة اسرائيل · كل ذلك من خلال تناوله للموضوع بواسطة منظار اليوم ، على حد قوله ، ومن خلال حرصه على متابعة اي فئة او شخص بدا له انهما اثرا في تاريخ الصهيونية وان كانا من المغمورين في حينه · ومن خلال تغاضيه عن اولئك الذين ظهر له ان اراءهم كانت في نهاية الامر ذات قيمة اكاديمية فقط ·

فهل وصل الكاتب الى مبتغاه الذي حدده لنفسه ؟ وهل صار بامكان القارىء ان يجد الجواب على باقة من الاسئلة الحائرة في ذهنه عن الصهيونية ، فكرة ، حركة ، ودولة ؟·

سنترك ذلك الى نهاية العرض كي لا نسمح لانفسنا بالاستنتاج الا حيث يفرض الاستنتاج نفسه ·

يتكون الكتاب الذي نحن بصدد عرضه ونقده من توطئة وخمسة فصول وثبت بالمراجع وفهرس · في المقدمة حدد الاستاذ جريس غرضه ومنهجه اللذين اشرنا اليهما قبل قليل ·

اما في التوطئة التي ارادها الكاتب مدخلا لفهم الصهيونية ، فقد تناول الصهيونية من حيث اسباب وتاريخ ظهورها ومكوناتها واسسها على اعتبار انها احدى مشتقات المسالة اليهودية التي خلقها حكام وشعوب اوروبا الشرقية كما يقول · مع انه يؤكد بأن المرحلة الاولى من المسالة اليهودية تبدأ بمفهومها الذي شكل مقدمة نشوء الصهيونية مع طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩٢ لاسباب دينية اساسا ·

لقد كشف الكاتب في هذه التوطئة ، ببراعة عن اختلاط مفاهيمه المستخدمة في هذه الدراسة وعدم وضوحها في ذهنه · ففي حديثه عن الصهيونية يستخدم مفهومات مثل ، اسس ، مكونات ، وسائل ، ادوات واسباب كأنها مفهومات مترادفة · وشتان ما بين دلالة مفهوم واخر من هذه المفهومات · فالاسس بالتأكيد هي شيء اخر يختلف عن الاسباب وعن الوسائل · وقد انعكس هذا الخلط الواضح في المفهومات عند الكاتب على مقاومة القارىء للملل المتسرب اليه عبر تفاصيل التفاصيل التي لا ضرورة لها · ومع ذلك بالامكان القول ، بأن الكاتب يعتبر بأن الظروف الموضوعية والاوضاع الذاتية لليهود خلال